الساكن الجديد

يمكن أنه وقع في سالف الزمان حادث غير مألوف في حيّ عتيق من أحياء القاهرة . فقد نزل بذلك الحيّ رجل سريّ المظهر ، واختار لسكنه منزلاً قديماً متّصلاً بمنزل الحاج حسن الشربيني ، الشيخ العريق الحال .

وتجمع أناس من أهل الحي لمقهى زريّ ، وطفقوا يتساءلون عن السبب الذي دعا ذلك الغريب السريّ الى اختيار حيهم الفقير للإقامة فيه . وقال أحدهم بعد أن مدّ من طويلته نفساً طويلاً ، وأطلق دخانها في الهواء :

— يبدو لي أنه غير مصري .

فعقّب رفيق له يجلس الى جواره .

— ولِمَ ذلك ؟ .. ألأنه صبيح الوجه مشرقه ؟ . . هو العز الذي يضفي على صاحبه مثل هذا الرونق .

ورفع أحد الحاضرين فنجان القهوة عن فمه وقال .

— يخيّل إليّ أنه أمير .

وشرق مدّخن الطويلة بدخانها على أثر ضحكة انفجر بها ، وتساءل متهكماً بعد أن سكن هو والذين جاروه في القهقهة .

— أمير يقطن حيّنا ؟ !! .

وظهر الحاج الشربيني حينئذ على عتبة المقهى ، وقال وهو يضحك من أعماق صدر متأثرة في فمه المظلم .

— ولِمَ لا يقطن داوي أمير ؟ .. إنه صديق كبير خطير .

وتدافعت الأسئلة منهالة عليه من كل جانب .

— أقابلته ؟ ...

— ماذا قال لك ؟ ..

— وكيف عرفت أنه سنجق ؟ ؟ ...

— اصمتوا حتى يتسنى لنا الأمر .

— أتيحوا له فرصة للكلام .

وجلس الشيخ إلى جوار مدخن النرجيلة مزدوًا بنفسه . وقال بعد أن سكنت الجلبة .

— شاهدت لعيني شارة وظيفته مطبوعة على أوراقه ، وعلى أثاثه .

ألم تروا خادمه في ثوبه المرقش بالذهب ؟ ! انه من سناجق المماليك المرموقين .

فحاوره جليسه قائلاً :

— إذا كان الأمر كما تقول فلا بد من أن تكون دولته قد ذالت .

وقال آخر :

— لا بد من أنه فقد جاهه وماله .

فاحتج الحاج قائلاً :

— لا ، إن مظهره يدل على الغنى . ألم تروا خادمه في حلته الثمينة ؟ ألم تشاهدوا رياشه أثناء نقلها الى الدار ؟

ثم دس يده في جيبه ، وأخرج قبضة من النقود الذهبية وضعها على المائدة . وصاح وقد انفرج ثغره عن ابتسامة عريضة .

— انظروا ... لقد دفع لي قيمة الايجار عن الثلاثة الأشهر القادمة ...

هذا القصر المكون ! ! ...

مرت الأيام ، وتحول المنكرون الى مصدقين ، وانقلب استخفافهم بالسنجق الى إعجاب به ، وتغير بإقامته بين ظهرانيهم . وزاد هذا التبدل الذي طرأ على القوم زهو الحاج الشربيني واعتزازه بداره التي سرّنها ذلك العظيم باختيارها سكنًا له وتبدّل حال الحيّ فلم يعرف في مثل الركود الذي كان غارقًا فيه من قبل . بل تعددت المشاهد التي بهرت قطانه . كان بعض

فرسان يتصدرون على ظهور جيادهم المطبخة دار السنجق ، ويجيرق فيها ليالي الهو والطرب شملاً الأرجاء ألحان شجية تتخللها صيحاتهم وترنيماتهم .

وتناول خادم السنجق في ليلة تقيّب فيها مخدومه عن داره ، وتوجه الى ذلك المقرى الذي سبق ذكره ، وأخذ يحدث المجتمعين فيه عن جاه سيده العريض ، وسلطانه العتيد ، عن تواضعه على الرغم من ذلك الجاه والسلطان . ثم تطرّق الى ذكر ثرائه الواسع ، وأخذ يعدّ الجود الذي كثيراً ما أتى على ما عنده من مال قبل أن يرسل اليه ناظر مزرعته وليها مستوفي الوفير .

وتعددت زيارة الخادم للمقهى ، وبلغ مستفيزه في تقريره ، وبالغ مر في إحاطة غيبه مظاهر الوقار حتى بدا كأنه السنجق نفسه . وذات ذات ليلة لمالك الدار التي جاورت الخان الأكبر .

— لا بدّ لي من أن ألفت نظرك إلى أمور لا يعرفها مالك السنجق لا يزال ، ولكنه هو الذي يستدعي من يشاء الى داره متى يشاء ، والسنجق لا يطالب بمال ولكنه يغدق من ماله متى يشاء على من يشاء .

وكان صوت الخادم وهو يلقي عباراته رهيباً فلم يجز على بث الرهبة في قلوب مستمعيه

وانقضت الشهور الثلاثة على هذا المنوال . وحلّ دفع قيمة الايجار الجديد . ومشى الحاج نفسه بأن يدفعه السيد العظيم قبضة أخرى من القطع الذهبية . ولكن الأيام تعاقبت بعضها في إثر بعض دون أن تتحقق هذه الأمنية . وساور القلق ، ولكنه قلّ يتظاهر رفاقه من روّاد المقهى بالاطمئنان ، ويضع السنجق فوق كل مظنة . على أنه كان لا يملك من حطام الدنيا الاّ تلك الدار ، وليس له من مورد لرزقه ورزق أولاده الاّ ما تغلّه ، فلما زال انقطاع ذلك المورد عنه ساءت حاله ، وضعف وضعف أهل بيته الجميع ، وخاله يسير فلم يطق السكوت . وراح يقص على أولئك الرفاق ما يعاني من ضيق . فقال له مدخر الترجمانة ، وكان يمت اليه بصلة نسب .

وما الذي أسكتك الى الآن ؟ اذهب اليه ، واشك له سوء حالك فهو اذا ما وقف على حقيقة أمرك أعطاك فوق ما تطلب .

وتحاشت العبارات التالية من جوانب المتهى من التحامل .

— لعل السنجق لسيك ! فقيمة إيجاره ! فيه مما لا يخطر لمثله على بال

— اذهب اليه واطلب تقودك ، فهو لا يرضى بأرخاق فقير مثلك .

— لم لا اذهب اليه ؟ . . لا شك في أنه سيرحب بك ، ويطيب نفسك

ومز الحاج محمد رأسه متنهداً وغمغم .

— السنجق لا يزار ... السنجق لا يسأل بحال .

وأسقط في يد القوم ، فما وجدوا أن ليس في الأمر حيلة ، صارحوا صاحبهم التعس بأن ليس له في مثل هذه الحالة إلا الانصراف .

وكان خادم الأمير يتحاشى في تلك الأثناء المقهى . ولكنه توجه اليه أخيراً في ليلة حصبا القوم سعيدة الطالع ، وأخبر الحاج محمد بأن سيده تسلطب فأذن له بزيارته في الصباح التالي . وما كاد الرسول يعود أدراجه حتى ساح الشيخ متهللاً .

لقد كنت أتوقع ذلك ، والسنجق لا يهضم الحق كغيره من الناس ولا يستهين بأشرف استهانتهم به .

وتنفس القوم الصعداء ، وتباروا في تمجيد السيد الكبير والتحدث بمناقبه .

وأسرع الحاج في الصباح الى منزل السنجق ، فاستقبله هذا الأخير لحاشاً ، وابتدره بقوله .

— لعنة الله على ناظر مزرعتي ! ذلك الجهول الذي لم يرسل إليّ حتى الآن ما طلبت من مال . على أنه بعث إليّ منذ يومين بخطاب يدعو الى الطمأنينة . وأنا لن أكتفي حين وصول المال المنتظر بدفع الإيجار الذي تطلب خصمه ، ولكني سأضحك إيجار العام المقبل معاً .

وجلس الحاج في جليسه وقد برقت أسارير ، وانطربت أنفاسه . وواصل السيد كلامه بعد تردد قصير

— وبما أن نقودي قد نفدت ، فأعطني سبع خمسين جنيهاً على أن أرده إليك مع المبالغ الأخرى .

ودار المكن بالحاج ، وأظلمت الدنيا في عينيه . وحاول أن يذكر السنجق الذي رقة

ماله ، وجزع عياله ، وقضاه أياماً طوالاً لم تنبع عينه فيها على قضاء ... ولكن الكلمات مضرجة في حلته الذي جف ويبس ... ولم يعد الى رشده إلا على صوت الخادم الذي طرق بابه وهو يقول له في ...

— ماذا دهاك ؟ ... ألم يعطك سيدي ما تسأل ؟

فأجاب فاغراً فاه :

— لا ياسيدي ، بل طلب مني خمسين جنيهاً ... أنا القمر لا يملك خمسة قروش .

وصاح الخادم وهو يبدي دهشته :

— أتطلب منك هذا المبلغ حقاً ؟ ... أتراه لك على هذا الفرش الكريم ؟

فتمتم الحاج في مرارة :

— ولكني لا أملك شيئاً . ألا تفهم معنى قولي ؟ ... أنا لا أملك شيئاً .

ورفع الخادم رأسه ، وحدج الحاج بنظرة صارمة ، وقال :

— طلب السنجق أمر واجب الطاعة ، فلا تعصني لئلا ... أن أصنع به ...

واجتمع الحاج في المقهى بنسيبه وزملائه ، وأطلعهم على مصابهم ... بينه وبين كل من السنجق وخادمه . ولما رأى الزجر يسود الجمع ازداد انقباضه ، وأخرج منديله الأحمر العريض ، وأخذ يمسح به العرق المنصب من وجهه

وقال نسيبه ، بعد فترة سكوت .

— إن الله ذاته لا يكلف نفساً فوق وسعها .

وعدَّ بعض الحاضرين هذه العبارة تحدياً للسنجق فلم يتمالكوا الدهشة ، وصاح أحدهم :

— لا يجمل بنا أن نخذل سيداً كبير القدر في ضيقه

فردَّ الحاج محتدّاً .

— ولكننا لفي ضيقاً أشد من ضيقه .

وعقب نسيبه بقوله :

— من أراد منكم عزل السنجق ، فليعنه بماله لا بمال غيره .

فتعالت الصيحات من جوانب المقهى :

— لا يجمل بنا أن نفعله .
— لا بد من أن نتعاون على تلبية طلبه .
— هذا واجب لا مفر منه .
— أنا أدفع جنيهاً .
— وأنا أدفع جنيهين .

واشتطت الحماسة بين الحاضرين ، فجادوا بثمن قرنهم ، ولم يعد المنشد من جمع قديم المبلغ المطلوب . وجاء الخادم الى المقهى يستطلع أخبار الحاج ، فرجع مسرعاً سيده مرفوراً ، فحمله اليه راضي النفس مسروراً .

وتعاقبت الأيام دون أن تنفرج أزمة السجن فهي [illegible] أهل الحي في تدبير ضيق الحاج كما فرجوا ضيق مدينه ، الا إذا استطاع سيده الذي ذكره قرنه ، وسره نفسه حتى تدخين الفرجيلة ليوفر معاش الأسبوع .

وكانت الليالي تمر بالمقهى متعاقبة لا يجد فيها جديد . فالزهره التي تبعث مسالك النهر بعينها في كل ليلة ، والأحاديث التي تدور بينها لا تختلف ولا تتنوع . حتى أن فريسة محل ذلك المقهى في إحدى الليالي فاستثار فضول الحاضرين ، وكان جاء ليتابع سيدته من أهل الحي فلم يجدها ، ورأى أن ينتظر قدومها ، فانتحى ركناً من الأركان ، وانكفأ فيه . وعندما التوم يتحدثون عن السيد الكبير تفاقم غمار الحديث وسألوه :

— أهو طويل بدين مطاق ، وجهه أبيض ، وشعره أحمر ؟؟ .

فصاح الحاضرون :

— هو كذلك ... أتعرفه ؟

ولكنه ظل ساكتاً .

— أله خادم وسيم يلبس القصب ؟

فأشار برأسه :

— نعم هو بعينه .

وانهالوا عليه أسئلة :

— ماذا تعرف عنه ؟

— أهو سجين حقاً ؟

— أهو لص ؟

— حدثنا عنه يرحمك ...

وصمت الغريب حتى سكتت النسمة ، ثم طفق يقول :

— نعم ، كان سنجقاً واسع الثراء ، ولكنه لم يتوان عن تبديد [illegible] لاحق به الفقر بعد الغنى ، عجز عن احتمال ذلة الفاقة ، وراح يلتمس المال عند [illegible] من مسارفه القدماء ، فكان يقصد الواحد من هؤلاء فلا يرجع من عنده إلا [illegible] ، فنفد لم تعرف القاهرة أعظم منه ، وعاش على كرم أصدقائه عيشة لا تقل في مظاهر [illegible] عيشته أيام ثرائه .

ولكن كرم أصدقائه لم يلبث أن شارف نهايته ، فأخذ [illegible] به بمطالبه ، ويرمقون أبوابهم في وجهه فقصت موارد رزقه ثم نضبت ، وعجز عن [illegible] فطولب بمقاديره . وتناقلت الألسن أخباره التي سرعان ما وصلت الى خدم الفندق ، فأشفق هؤلاء عليه ، ورثقوا بحاله ، ورأوا أن يتعاونوا على تفريج كربته ، فجاد كل منهم من وسعه وجمعوا خمسين جنيهاً ، والتجأوا الى خادم السنجق ليرفعها الى سيده سنجق المعصرة ، لكن الخادم عاد بها إليهم ، وأفهمهم أن مخدومه لا يقبل منحة من الخدم ثم [illegible] فقالوا : فليقبل هبة تقل عن مائتين من الجنيهات .

وتبدّى جلاس المنعى فرحاً لدى سماع هذا القول ، وصاح [illegible] .

— ولكن السنجق كرّمنا فقبل منا هبتنا .

وصاح آخر .

— لقد رضي منا بخمسين جنيهاً فقط !! ..

وابتسم الزائر الغريب ثم أردف .

— لكن السنجق بعث برسوله بعد برهين الى خدم الفندق يفهمهم أنه رأى بعد التروي أن يقدر عاطفتهم النبيلة ويقبل هديتهم ....

وطأطأ القوم رؤوسهم ولم يجرؤ أحدهم على القطع برأي في أمر السنجق الى أن تعالى صوت من أحد الأركان يقول .

— يا لهم من سيد كريم نبيل !!

فهزّ القوم رؤوسهم مصدقين ، وهمهموا مؤيّدين ....

واستمسكت النسمة التي كان نسيب الحاج محمد يمانيها . فانه لم [illegible] على قوت عياله إلا بهن النعش . فما لبثت حتى كاد ينوء به [illegible] عن نفسه بانتقاص ثمن السنجق ، والنيل من سمعته ، ووصمه بخراب الذمة . وأخذ [illegible] الحاج الى المسألة بحق الاشتمال في ذلك . وقال له في عصر أحد الأيام [illegible] المقهى

— لماذا تهنئني في هذا الحد؟ أجهض حقك، وبقوتك وأهل بيتك وإلا جاءين، بينما ينفق هو المال على نفسه وطوره بغير حساب؟ ثم لا يكون جزاؤه منك إلا التبجيل والتكريم؟

فغار الحاج هنيهة. ثم رفع بصره إليه وقال:

— إن كنت أنت لا تخشاه فاذهب إليه وطالبه بحقي نيابة عني.

فهدّج الرجل حماسة وصاح.

ولِمَ لا أذهب إليه؟ أتحسب أنه سيسلخ جلدي؟ .. أو سيدقني حيًّا؟! ما هذه المسكنة التي ضربت على أهل هذا الحيّ؟!

وانتفض الحاج فجأة وهمس في أذن جليسه.

— أنظر ... ها هو ذا مقبل صوبنا.

وكان السنجق يسير الهوينا تحف به الهيبة والوقار. ووقف الرجلان حيرى إذ اقترب منهما. وانحنيا له حتى كاد رأساهما يلمسان الأرض

ولكن الجدل لم يلبث أن احتدم بين الرجلين ثانية، ثم أخذا يتبادلان الأمر في دورة على مختلف وجوهه حتى استقرّ رأيهما على أن يرفع الحاج عريضة الى السنجق يشرح فيها سوء الحال، وشدة حاجته الى المال.

وكتب لهما العريضة صديق من جلساء المقهى يكاد يرسم الحروف رسمًا، وبالغ في وصف بؤس الحاج، كما بالغ في الاشادة بشمائل السنجق وبعطفه على المعوزين ورحمته بهم.

وأرسل السنجق في طلب الحاج على أثر وصول العريضة اليه، وقال له حين مثل بين يديه

— أأنت فقير الى الحد الذي شرحته في استرحامك؟؟

فأجابه الحاج بصوت منهدج؟

— أولادي جياع يا سيدي الأمير.

فقال السنجق وهو يبتسم ابتسامة إشفاق:

— أنا رجل عادل وأرى أنه لا يجوز أن تحتمل هذا العبء وحدك. فعليك أن تجد لي مسكنًا آخر من منازل الحيّ خاليًا لأنتقل إليه، وأدع لك منزلك تستغله كما تشاء. وسأظل أتنقل بين مساكن الحيّ حتى ترد لي نقودي. لأن واجب كل مسكين أن يضحي كخير ما في سبيل السنجق ... هذا هو العدل التام.

وقام فحيّى الحاج وهو يبتسم ابتسامة دلت على رضاه التام عن نفسه.

كامل مصطفى الشرباصي